



هوامش

فتح خان «أوبروق» بولاية قونيا التركية أبوابه للزوار أخيراً، بعد إنجاز أعمال ترميم استمرت أكثر من عامين، فهل تعيد تركيا حكايات ضيافة الخانات في زمن الضادق؟



خان «أوبروق» موقع تاريخي جديد يجذب السياح في قونيا (أراء هاسيوغلو كاراكيا/ الأناضول)

إسطنبول - عدنان عبد الرزاق

لأسباب اجتماعية أو خدمية، لم تعد الخانات ضرورية في زمن المدنية واستقبال الضيوف والتجار في الفنادق، لكن الأهمية التاريخية لهذه الخانات على صعيد استقبال الوفود وإيواء العابرين أو حتى إبرام اتفاقات تجارية يضعها ضمن الآثار التي يجب الحفاظ عليها، ومحاولة إعادة إحياء تلك المهمة أو التي هدمت، وهو ما حدث أخيراً لخان «أوبروق» الذي يعود إلى القرن 13 ميلادياً ويقع قرب ولاية قونيا تهديداً لإدراجه ضمن معالم برامج الرحلات الترفيهية للولاية. وغالبية خانات تركيا أو ربما كلها سُيّدت خلال الحقبة السلجوقية، بحسب ما يقول الباحث التاريخي أحمد كانام لـ «العربي الجديد»، بسبب ازدهار التجارة وكثرة الوفود التي اتجهت إلى الأناضول حينها، وسعي السلاجقة إلى تأسيس دولة اجتماعية، ما أوجد 50 خاناً خلال فترات متلاحقة لم يبق منها إلا القليل اليوم.

ويتحدث كانام عن أن «معظم الخانات بنيت على طريقة الأقواس والقبب، وتتضمن زخارف وأعمدة تشكل أثراً عمرها نحو 800 سنة. وهذا ما يفسر ربما اهتمام تركيا بالخانات خلال الفترة الأخيرة، وتنفيذ مشاريع إعادة ترميمها وتحويلها إلى معالم سياحية. وقد حظي خان أوبروق (المنطقة المنخفضة البالوعة)، باهتمام ودعم من الرئاسة التركية ووزارة البيئة والتطور العمراني والتغير المناخي، علماً أنه يقع على طريق بربط قونية بأكسراي. ويعد ترميم جدرانها وأجزائه التي واجهت الإهمال فتح الخان أبوابه للسياح والزوار». وكان رئيس بلدية قرطاي حسن قيلجا قد قال سابقاً إن «الخان كان مهدداً بالانهيار، في حين يستقبل اليوم 100 حافلة سياحية يومياً، وهو يشكل أحد أدلة أهمية المنطقة استناداً إلى كتابات تاريخية موجودة على جدرانها، ويجري العمل لإدراجه في قائمة منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (يونسكو) للتراث العالمي».

وتكثر الخانات بمنطقة آسيا الوسطى والأناضول، وقد شيدتها أسر أو حكام في مراحل تاريخية معينة ترتبط مثلاً بالفرزندان والقره خانيين والسلجوقيين، ما يدل بحسب الباحثين على الأهمية الكبرى التي أولاهم الأتراك قديماً للتجارة وكرم الضيافة ومفهوم الدولة الاجتماعية. ويقول عضو الهيئة التدريسية في قسم تاريخ الفنون بكلية العلوم الاجتماعية والإنسانية في جامعة نجم الدين أربكان زكريا شيمشبر: «ظهرت النماذج الأولى لخانات القوافل التجارية في التاريخ التركي الإسلامي في آسيا الوسطى باسم رباط، أي مراكز لمراقبة أهداف عسكرية، ثم أصبحت أماكن لاستراحة القوافل التجارية ودوابها، ويخبر بان «نموذج خان القوافل التجارية ظهر في زمن محمود الغزنوي باسم رباط الماهي، ثم بنى القره خانيون والسلجوقيون الكثير منها في آسيا الوسطى وخراسان. وقد أمر

باختصار

أحصى فريق أكاديمي تركي، بعد أربع سنوات من البحوث، وجود 200 خان تعود إلى العهد السلجوقي

ظهرت النماذج الأولى لخانات القوافل التجارية في التاريخ التركي الإسلامي في آسيا الوسطى باسم «رباط»، أي مراكز لمراقبة أهداف عسكرية

بنيت معظم الخانات على طريقة الأقواس والقبب، وتتضمن زخارف وأعمدة تشكل أثراً عمرها نحو 800 سنة

خان «أوبروق»

من حكايات الضيافة في تاريخ تركيا

أحد أكبر الخانات في الولاية، وبُني عام 1651 بإشراف السلطنة كوسم، والسدة السلطان محمد الرابع. وتحولت وظائف خان الوالدة القديمة من تخزين البضائع القادمة عبر السفن الراسية في خليج القرن الذهبي ونزلاً لإقامة التجار المسافرين إلى تجنّع لورش عمل حرفيي الحديد والفخار والمصاييح والأراجيل والفضة وورش النسيج والخياطة التي تتوزع على طابقين، يضم الأول 153 غرفة، والثاني 57 غرفة. ويقم باحثون «خان غالاتا للمولوية» بأنه مسك ختام الخانات باعتباره أقدم الخانات في الشطر الأوروبي لمدينة إسطنبول، إذ تشير المراجع إلى أنه بني عام 1491 ميلادياً بامر من إسكندر باشا ليكون مركزاً ومقرّاً لفرقة المولوية من أجل تقديم نشاطات واحتفالات دينية، لكنه احترق بالكامل عام 1756، ثم أعاد الشيخ المتصوف محمد ساهي ديواني بناءه. وتحول الخان إلى مدرسة لتعليم المتصوف الإسلامي، ثم إلى مدرسة ابتدائية وكلية قبل أن تفتح للمساح كمرار سياحي يعرض أدوات ومستلزمات الدراويش الذين يؤدون عروض المولوية وألات موسيقية استخدمت عبر مراحل التصوف منذ «مولانا» جلال الدين الرومي الذي يحتفل الخان بذكرى وفاته خلال ديسمبر/ كانون الأول من كل عام، عبر برنامج يتضمن الموسيقى ودوران الدراويش بعكس عقارب الساعة.

على يد المعمار الدمشقي محمد بن هافلان، الذي بنى أيضاً جامع السلطان علاء الدين في قونيا. وتعتبر ولايات الأناضول الأكثر احتواءً على الخانات في البلاد، والتي تعود خصوصاً إلى فترة السلاجقة، لكن هذا لا يعني أن بقية الولايات تخلو من الخانات لأنها كانت أماكن إقامة القوافل والعبادين. ويخبر كانام بان فريقاً أكاديمياً تركيا برئاسة البروفسور عثمان أرافشار، عميد كلية الفنون الجميلة بجامعة المتوسط في أنطاليا، أحصى، بعد أربع سنوات من البحوث، وجود 200 خان تعود إلى العهد السلجوقي، وقد بنيت 14 منها في قونيا، و4 في قيصري، و4 في أنطاليا، وأخرى في ولايتي أدرنة وإسبرط. وتوجد حالياً الخرائط الأصلية للمواقع والأضرحة والمدارس والخانات لدى مديرية الأوقاف التركية. ولأن إسطنبول العاصمة المستمرة لحضارات عدة فهي تحتوي على خانات عدة، أقدمها وربما أهمها خان بالكاباني الذي بني في القرن الرابع ميلادياً، أي في عهد الدولة البيزنطية، أما الخانات الأخرى فيعود معظمها إلى عهد الدولتين العثمانية والسلجوقية، ولا تزال معظمها قائمة كما كانت حينها بفعل أعمال الترميم والاهتمام التي تحظى بها من الدولة التركية. ولا يمكن المرور بإسطنبول من دون ذكر «خان الفرسان» و«نجرلي خان» و«خان الحجر»، والأهم خان الوالدة القديمة، خلال التطرق لخانات إسطنبول، فهو

السلطين السلاجقة ببناء خانات القوافل بكثافة بفارق مسافات تراوح بين 30 و40 كيلومتراً بهدف تعزيز الأنشطة التجارية في المنطقة، وتركزت في مواقع الطرق التجارية بعيداً عن التجمعات السكنية، ما جعلها تحمل أهمية عسكرية أيضاً، وهو ما حتم بناءها باستخدام أحجار صلبة وجدران مرتفعة وبوابة واحدة فقط». ويوضح شيمشبر أن «نزلاء الخانات كانوا يبيتون فيها لمدة 3 أيام من دون أي مقابل مادي، ويحصلون على الطعام والشرب مجاناً، كما كان يوجد أطباء عاديون وبيطريون في بعضها. وتظهر كثرة الخانات تعلق الأتراك بمفهوم الدولة الاجتماعية، إذ كتب المنة لله مغللاً فوق بوابة خان السلطان في أقصراي»، ويشير أيضاً إلى أن «مخططات الخانات التي تتضمن ساحتين داخلية وخارجية كانت الأكثر شيوعاً في منطقة الأناضول، وسط تركيا، وأبرزها خان قيزيل أوزن، وخان قورو جيشمه بجوار ولاية قونيا، وخان السلطان وخان أغزي قره وخان الاي في أقصراي، فضلاً عن خان قراناي في قيصري، كما توجد خانات تحتوي على قسم داخلي مغلق فقط، لكن أعدادها محدودة جداً، مثل خان شرابسا في الإنيا». ويبقى خان سلطان في بلدة سلطان خاني بمقاطعة اق سراي الأهم والأجمل، وبني باستخدام الرخام عام 1223 في زمن السلطان السلجوقي علاء الدين كيوكبات،

وأخيراً

«بونساي» شجرة الحقيقة

نجوم بركات

حين تتوقّف وظيفة العقل، فلا يعود يميّز بين الخطأ والصواب، حين يتوقّف عن الفرز والتمييز، يحزن كالبعث عند منعطف ما، أمام تفصيل بسيط من مشهده عام بالغ التعقيد، في دائرة مصغرة يبقى يدور فيها، مُغفلاً كل ما حوله، متغافلاً عن إمكانية الخروج والانتقال والسير قدماً. هذا ما نراه يحصل كل يوم أمام أعيننا، منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول، حرنّ وعناد وتعام عن رؤية الوقائع والثبات على قراءة واحدة، وليّ ذراع الحقائق لكي تناسب تلك القراءة. وتكاد لا تصدّق تلك المبالغة، وتقول إن البروبانغا هي هذا بالذات، أن تلوي ذراع الحقيقة، تقصّ وتقطع وتحجّم لكي تدخلها في إناء فكرتك الواحدة. ومهما كانت الحقيقة كبيرة، ضخمة، واضحة، بيّنة، جيّنة، فهذا كله لا ينفع، ثمة تقليد أو تقنية يتبعها اليابانيون في تقزيم أشجار عملاقة وجعلها أحياناً بحجم الكفّ وحشرها في إناء عملية التقزيم هذه تنتج نباتات تدعى بونساي أو بونزاي. هي تحتفظ، شكلياً بكل خصائص الشجرة، على

الأقلّ في المظهر، لكنها مهما اقتربت في مظهرها من الأصل لن تكون شجرة، هكذا هي البروبانغا. بونساي شجرة الحقيقة، إنما بعد تخليصها من كل نزعة جمال أو نظام تتمتع بها نباتات البونساي. أنتقل من قنّاء أجنبية إلى أخرى. لا أعرف ما هذا الهوس المازوشي الذي يسيطر عليّ، أعرف أنني سأبتلع شئاً، ومع ذلك أفعل، أعرف أن أعصاب معدني ستتعقد، ولا يُثنيني الأمر. ثمة مشهد سوربالي سيدور الآن تحت عيني، مشهد فيه من سوء النية ومن التغاضي عن المسلمات، ما يجعل العيون تجحظ ويوقف شعر الأبدان. «ما وجد في مستشفى الشفاء من أسلحة ثبت أن إرهابيي حماس كانوا يستخدمونه مقرّاً لعملياتهم... ثم يظهر الضابط الإسرائيلي أمام بضعة كلاشينكوفات وقنابل وسترات، وهو يشرح لنا منفعلاً ما وجده، تكاد تضحك من هبله، ثم تجمد الابتسامة على شفتيك، حين يسأل الصحافي، حفظ لحدّ من المصادقة أدنى، ضيفه محرّجاً: ولكن أين الأنفاق التي رأيناها في الفيديو ثلاثي الأبعاد؟ فيجيب المحلّل: أعطهم يوماً أو يوماً وسوف يكتشفونها وتنجلي الحقيقة... لكن

والقيم العظيمة التي صنعها عصر الأنوار والتقدّم، «بونسايات» تافهة وعناصر ديكور تُستخدم للزينة فقط، فيما تتنامى في شوارع العالم أجمع أشجاراً ضخمة هادرة تتمدّد غصونها وتخرج جذورها العملاقة، مهدّدة بالانفجار. حين تتوقف وظيفة الإحساس والتعاضد الإنساني والرحمة وطلب العدالة والمساواة والشعور بعذابات الناس والدفاع عن الضعفاء والمقهورين والتوق إلى مثلّ عليها، فما الذي يتبقى؟ تصبح الحضارة البشرية بأكملها في عينيك «بونساي» تافهة لا قيمة لها، تغريك بحملها ويقذفها من النافذة، قبل إطفاء النور والجلوس عاجزاً في عتمة شاملة، أجل، ما الذي يتبقى لكي تتمسك به، أنت الدودة العارية، وأين تراك ستضع كل تلك الوجوه البريئة التي تغمرك مثل تسونامي عملاق؟ أنت في العتمة الشاملة، سابغ بين الأهداب المسبلة، والعيون المطفأة، والأطراف المخلّعة، والأجساد الصغيرة المذعورة المرتعدة التي لا تفقه ما يجري، ولم أمطرتها السماء بكل هذا الشرّ والحقد. كيف ترتبها ولا تتخلّى عنها وتقاوم اعتبارها، مبقياً على ما فيك من بشريّة؟

الحقيقة لا تنجلي، لأن ما يدعونه بعيداً عنها كلية، وسوف تأتي «حقائق» أخرى ماثلة، لتطغي عليها مع ضرب المدارس وسقوط مزيد من المدنيين والأطفال قتلى تحت القصف والدمار. حين تتوقّف وظيفة العقل فلا يعود يميّز ما بين الخير والشرّ، بل حين تتحوّل الوظيفة إلى عكس أهدافها، فتجعل العقل يبذل الخيراً شرّاً والشرّ خيراً، تصبح كل قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان والإبادة الجماعية والجرائم بحق الإنسانية

انت في العتمة الشاملة، سابغ بين الأهداب المسبلة، والعيون المطفأة، والأطراف المخلّعة، والأجساد الصغيرة المذعورة المرتعدة